صدام الحضـــــ

دراسة في مســـ

صدام الحضارات أو صراع الحضارات .. هذه الكلمة التي سطرها الباحثون والمفكرون في المستقبل وأحداثه .. ولكن الكثير منا لم يعر هذه الكلمة ما تستحق من الاهتمام ، واتجهت أفكارنا اتجاهات شتى ، إلا أن الأحداث التي تجري اليوم تدفعنا إلى معاودة التفكير بجدية في جدوى دعاوى التعايش السلمي بين المسلمين وغيرهم ، والتي يصر البعض على إعلانها والترويج لها وإقناع الناس بها والدفاع عنها .

وقد ظهر من خلال بداية هذه الأحداث ما يدل ويؤكد على أنَّ الساسة والكبار في دوائر الغرب لا يفكرون ولا يرغبون في الرضا بالتعايش بين الأمم ، لكنهم إن قبلوا بذلك فهم يريدون التعايش الذي يضمن لهم السيطرة على العالم وقيادته وتحقيق أهدافهم في نهب ثروات العالم وخيراته .

أما حين يكون ذلك الأمر يجري في قناة مصلحة الشعوب الأخرى ، فإنهم سرعان ما يبادرون إلى وضع العراقيل والعوائق التي تحول دون تحقيق أي نوع من التعايش .

إنهم يثيرون الحروب بين الشعوب ويغذّونها بالأسلحة الفتاكة المختلفة ، ويأمرون وينهون ، كلّ ذلك وفق مصالحهم ، وكل من لم يذعن لهذه السياسة والإدارة ، فسرعان ما يجد نفسه في خانة الإرهاب ، وتعلن عليه الحرب بدعاوى وحجج كثيرة .

وعندئذٍ يتم الدوس على جميع القيم والمبادئ والمثل التي ظلّ هؤلاء يروّجون لها زمناً طويلاً ، وعندئذٍ يصبح الحديث عن التعايش السلمي بين الأمم مزحة لا معنى لها .

إن صدام الحضارات هو الاستراتيجية النهائية التي يريدها هؤلاء .

أما دعوى التعايش فهو تكتيك مرحلي لضمان استمرار السيطرة على العالم ، واللعب على الذقون والضحك على المغفلين والمخدوعين .

إن ما صرّح به الرئيس الأمريكي بوش في إعلانه الحرب على ما يسميه الإرهاب بأنها

ـــــــــارات ودعوى التعايش السلمي :

ـــتقبل العلاقة بين المسلمين وغيرهم !!

د. عبد العزيز صغير دخان
E-ma il:dakh2002@yahoo.com

حرب صليبية ، ليس مجرّد زلّة لسان ، بل هو تعبير عن حقيقة راسخة في نفوسهم ، فكل حروبهم مع الإسلام لم تكن إلا امتداداً لسلسلة الحروب الصليبية القديمة .

وقديماً صرح أحدهم يلخّص قضية الصراع بين المسلمين وملّة الكفر ، فقال : « يجب أن ندرك أن الخلافات القائمة بيننا وبين الشعوب العربية ليست خلافات بين دول أو شعوب ، بل هي خلافات بين الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية »[1] .

ويقول أيضاً : « لقد كان الحوار محتدماً بين الإسلام والمسيحية على الدوام منذ القرون الوسطى بصورة أو بأخرى ! ومنذ قرن ونصف خضع الإسلام لسيطرة الغرب ، أي خضعت الحضارة الإسلامية للحضارة الغربية ، والتراث الإسلامي للتراث المسيحي !![2] » .

هذا هو فهمهم للعلاقة بين الإسلام والمسيحية ، لا أثر فيه لما يُسمَّى بالتعايش السلمي ، بل هي إرادة الغلبة والسيطرة وإخضاع الإسلام وحضارته .

آيات الله تبيّن وتوضح وتضع القواعد :

ومالنا نذهب في تقرير هذه المسألة والقضية شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ، وآيات الله تصدع بهذا الأمر وتؤكده .. ويكفينا في هذا المقام موضعان من كتاب الله :

الموضع الأول : قوله تعالى : « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردّوكم عن دينكم إن استطاعوا .. »[3].

إن هذه الآية توضح وتبين بأسلوب عربي مبين أن أعداء الإسلام سيكون شغلهم الشاغل ، وديدنهم المستمر هو كيف يمكن أن ينجحوا في فتنة المسلمين عن دينهم بكل الوسائل ، ولو اقتضى ذلك انتهاج الحرب كأسلوب لتحقيق هذه الغاية ، وهي صرف المسلمين عن دينهم ، وهذه النية ثابتة ، وهذا القصد دائم لا ينقطع ولا يفتر حتى يحصلوا على ما يريدون ولما كان الأصل في المسلمين ألا يرضوا بذلك ، بل لن يكون من السهل أن يغيّر المسلم دينه . أو يستجيب لضغوط الكفر بأساطينه وأساطيله مهما أرعد وأزبد وأجلب بالخيل والرجال ، فمعنى هذا استمرار هذا القتال والحرب من الكفار ، واستمرار هذا الاستعصاء من طرف المسلمين المؤمنين ، فأين سيكون مكان التعايش السلمي ودعاوى المخدوعين من المسلمين بذلك ؟

---

١ - قوى الشر المتحالفة ص١٥ .
٢ - معركة الإسلام لمحمد محمود الصواف ، ص١٨٣ .
٣ - البقرة : ٢١٧ .

إنهم مقيمون على فتنة المسلم عن دينه ، غير تائبين ولا نازعين ، حتى يحققوا مبتغاهم ويصلوا إلى أهدافهم وغاياتهم ، وهي إخراج المسلم من دينه ، ولا يهم بعد ذلك ألا يكون يهودياً أو نصرانياً ، فليس هذا هو الهدف .

إن هذه الآية تتضمن الإخبار من الله عزّ وجل للمؤمنين بأن هؤلاء الكفار لا يزالون مستمرين على عداوتهم وقتالهم للمسلمين ، حتى يردوهم عن الإسلام إلى الكفر إن استطاعوا ذلك وتمكّنوا منه ، ولكن سياق الآية يدل على صعوبة أن يتمكّنوا من ذلك ويقدروا عليه ، ومع ذلك حذّر الله تعالى المؤمنين من الاغترار بالكفار ، والرضى بما يدعونهم إليه ، وكأن المسألة ستأخذ شكل الإغراءات التي قد يسقط أمامها البعض لأسباب مختلفة ، ولعلّ منها ما نشاهده اليوم من شعارات براقة وقيم مزيّفة يدعو إليها هؤلاء ، من مثل الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان التي قد تستهوي بعض المسلمين ، تدفعهم إلى السقوط في الفخ الذي نصب ، والشَّرَك الذي أعدَّ لهم ، فيغفلون عن أن الله تعالى قد حذّرهم عاقبة الاغترار والانسياق وراء ما يرفعه هؤلاء الكفار من شعارات براقة وأعلام خفاقة وما يبذلونه من أموال دفاقة .

يجب أن يعرف المسلمون أن وجود الإسلام نفسه مبرّر كافٍ لإعلان الحرب عليه .. إن الخفافيش التي تعيش في الظلام تكره النور وتخشاه ، وتتمنى لو أمكنها أن تغطي قرص الشمس حتى لا يبدو ضوء النهار ، أو تغطي هذا الكون حتى لا تسقط عليه أشعة الشمس ، فيشرق فيه كل شيء .

إن القيم العظيمة التي يحملها الإسلام من الحق والعدل والخير والفضيلة ، توغر عليه قلوب الفاسدين والطغاة والظلمة والمتجبرين ولصوص الأمم ، الذين ينهبون خيراتها ويتحكمون في رقابها ، وهم لا يطيقون أن يقوم هذا الدين في الأرض ، وأن تسود قيمه ومبادئه وفضائله .

إن هذه الآية العظيمة تقرع سمع المؤمن بقوة ، وتسري في جسده بشدة ، ينتفض وينتبه ويفتح عينيه على كيد الأعداء ومؤامراتهم وسعيهم الدؤوب الحثيث بكل الوسائل والأدوات لتحقيق ذلك الهدف الثابت : أن يرتد المسلمون عن دينهم ، ويرجعوا أذلة لا وزن لهم ولا قيمة ، وهذا يدل على أنه ليس للمؤمن عذر في ترك دينه والانسياق وراء ما يريده هؤلاء ، لا يجوز له أن يتنازل عن شيء من قيمه ومبادئه وفضائله وقواعد دينه ومقاصد شريعته إلا شيئاً تقتضيه مصلحة شرعية راجحة يقرّرها أهل العلم بهذا الدين ، وليس أصحاب السياسة الذين رأيناهم يعانقون الكافرين ، ويقبّلون منهم الجبين والخدين وما بين العينين ، قد تركوا الجهاد الذي يورث العزّة والكبرياء والاستعلاء على الأعداء ، فأذلهم الله ومرّغ وجوههم في وحل الهوان والذلّ .

قيم الإسلام العظيمة ، توغر قلوب الفاسدين والطغاة والظلمة والمتجبرين ولصوص الأمم ، لكراهيتهم أن يسود هذا الدين !

حال الكفر اليوم يشبه حال قريش لما قرع سمعها صوت الحق فحاربته بسبب الأهواء الصادة عن سبيل الله !

الموضع الثاني: قوله تعالى : ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ... ﴾ (٣)

هذه قاعدة قرآنية أخرى في بيان العلاقة بين المؤمنين والكفار من اليهود والنصارى ، إنهم لن يرضوا عنا إلا يوم نحني رؤوسنا أمامهم ، ونقدّم طقوس الطاعة والولاء ، وما لم يحدث ذلك فلن يرضوا عنا ، ولما كان هذا غير متوقع من المؤمن الذي ارتبط بالله، وآمن به واعتز بدينه ، ولم يسلّم مقاليد أموره لهؤلاء الأعداء ، فلا يمكن أبداً أن يرضوا عنه ، وهم في هذه الحالة لن يكتفوا بألا يرضوا عنا ، بل سيكون ذلك بداية طريق طويل من الحقد والكيد والحرب والصراع .

ومادام الأمر كذلك ، فشأن المؤمن الصادق ألا يمكنهم من دينه ونفسه ، ولا يوافقهم على ما يطلبونه ، بل عليه أن يقدم على طاعة الله ، ويصدع بكلمة الحق ويبلّغ دين الله كاملاً كما أنزل .

إن جميع التنازلات التي يقدّمها المسلم لهؤلاء الكفرة مهما كثرت لن تنجح في جعلهم يرضون عنه ويقبلون منه ، لأنهم يهدفون في نهاية المطاف إلى إخراج المسلم من دينه والاستيلاء على عقله وقلبه ، وإحكام السيطرة عليه .

ثم اشتد الوعيد والتهديد من الله عزّ وجل للمؤمنين من سلوك هذا المسلك ، فإن المؤمنين إذا اتبعوا أهواء الكفار وحاولوا إرضاءهم بمختلف التنازلات والتبريرات وتحقيق ما يريدون ، إنهم بذلك يعرّضون أنفسهم لغضب الله ومقته وسخطه ، وسيرفع الله عنهم نصرته وولايته ، ثم لا يبالي بهم في أيّ واد من أودية الدنيا هلكوا .

ما أشبه الليلة بالبارحة ، ما أشبه حال الكفر اليوم بحال قريش لما قرع سمعها صوت الحق ، لقد رفضته وحاربته ، ليس بسبب نقص الحجة أو ضعف الدليل ، فإن الذي يخاطبهم هو رسول رب العالمين ، المؤيّد بالوحي من السماء ، ولكنها الأهواء التي تصدّ عن سبيل الله . لقد كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، يعرفون صدقه وأمانته ، فهو لن يكذب عليهم ، ولن يغشهم ، ولكنهم رغم ذلك حاربوه وقاتلوه وأخرجوه وعذّبوا أصحابه ، وجمعوا عليه الأحزاب ، ورموه بكل تهمة وجريرة وجريمة ، فهو عندهم كاذب وكاهن وساحر ، يفرق بين المرء وزوجه والابن وأبيه .

قواعد ومفاهيم في العلاقة بين المسلمين والكفار:

لا جدال في أن المسلمين في جميع حروبهم لم يكونوا يقاتلون من أجل أن يكرهوا الناس على الدخول في الإسلام ، ولكنهم كانوا يقاتلون من يقف في وجه الإسلام ، ويحول بينه وبين أن يصل إلى الشعوب ، واضحاً صافياً ، ينساب إلى عقولها انسياب الماء على الأرض المستوية .

والنبي ﷺ كان قدوة وأسوة في هذا

٣ - البقرة : ١٢٠ .

الأمر ، حيث كان يرسل الرسل ، ويبعث الكتب إلى الملوك والرؤساء ، وذوي الشأن في أقوامهم ، يريد منهم أن يكونوا سباقين - قبل شعوبهم - إلى قبول هذا الحق والرضا به والإذعان له ، فإن هم أبوا وتمنعوا عن قبول واعتقاد ذلك فإن الإسلام لا يكرههم ، ولكنه يطلب منهم أن يخلوا بينه وبين أهل تلك البلاد ، ليسلم من اقتنع بذلك ، ومن أبى فلا ضير عليه ، فإن رفض هؤلاء الحكام والملوك أن يفعلوا ذلك ، فإن هذا يكون نوعاً من الاعتداء والظلم الذي يقع على هذه الشعوب عندما يحال بينها وبين أن ترى النور وتبصر الحق ، فالواجب عند ذلك ردّ هذا الاعتداء ، وهكذا تنطلق جيوش الإسلام لتزيل هذه الحواجز ، وتقضي على هذه العوائق التي تقف في وجه الإسلام وتمنعه من الوصول إلى قلوب الناس وعقولهم .

والمسلمون متفقون جميعاً على عدم إكراه أحد من الكفار على دخول الإسلام ، ومتفقون أيضاً على وجوب ردّ الاعتداء الذي يقع على المسلمين من طرف الكفار ، في كل صوره وأشكاله ، ولكن بقيت مسافة بينهما ، وهي في قتال الذين رفضوا الإسلام والجزية ، وهذه في الغالب تتعلق برؤوس القوم وطواغيتهم ، فهم الذين يمنعون الناس من الإسلام ، أو إعطاء الجزية ، وهذا يمثل في حقيقته اعتداء على الإسلام في منعه من الوصول إلى هؤلاء ، واعتداء على هؤلاء في منعهم من الوصول إلى الإسلام وسماعه وفهمه والاقتناع به .

من مقاصد الجهاد عند المسلمين :

إن فلسفة الجهاد القتالي عند المسلمين تقوم على تحقيق إحدى الحالات التالية :

١- أن يقع إسلام هؤلاء المخاطبين ، وهذا هو المقصود الشرعي الأول ، وهو الأرضى عند الله بدون شك .

٢- أن يقع صلح ، يتمتع فيه أهل البلاد المفتوحة بالأمن والأمان ، ويكون فرصة لمن يريد أن يفكر بهدوء في أمر هذا الدين ويرى آثاره وخيره العميم ، من خلال سيادة شرعه في تلك البلاد ، ومنعه للظلم بين الناس ، فيقتنع بعد أن لم يكن مقتنعاً .

٣- فإن أبوا ذلك ، فإن الإسلام يحاربهم ويقاتلهم ، وهو إذ يقاتلهم إنما يقاتل في الحقيقة رؤوسهم وكبراءهم الذين يمنعون الناس من رؤية الحق ، إن الإسلام يقرر ويقدر أن الشعوب مغلوبة على أمرها ، لا تملك أن تفكر بحرية في ظل سلطة هؤلاء الطغاة من الحكام ، بل إن ملك هؤلاء يقوم - غالباً - على استعباد هذه الشعوب واستخفافها ، كما قال تعالى ﴿ فاستخف قومه فاطاعوه ﴾ (٤) ، ولذلك فهم حريصون على الحيلولة بين الشعوب وبين كل ما من شأنه أن ييسّر لها سماع صوت الإسلام هادئاً هادراً بحجته وبراهينه، خائفون من اندفاع هذه الشعوب إلى تقبل هذا الإسلام

المسلمون لايكرهون الكفار على الإسلام ، لكنهم يعدون منع الإسلام من الوصول إلى الناس اعتداءً يجب رده ومحاربته !

٤- الزخرف : ٥٤ .

دوائر الغرب الفكرية والسياسية، لاتجهل الإسلام، بدليل ما تذكره من أوصافه وخصاله عند الحاجة !

واعتناقه واحتضانه لمن ترى فيه من قيم الخير والعدل والفضيلة .

والتاريخ يخبرنا أنه بمجرّد أن يسقط هذا الحاجز أو العائق ، تندفع هذه الشعوب إلى احتضان هذا الدين الذي يحمل لها أسباب السعادة في الدنيا والآخرة .

إن الله سبحانه وتعالى جعل الإسلام رسالته الخاتمة ، وأبطل بها كل دين على هذه الأرض ، وأعلن أن الحاكمية والهيمنة يجب أن تكون لهذا الدين ، لذلك شرع الجهاد لإخضاع هذا العالم لسلطان الله عزّ وجل الممثّل في شريعته التي أنزلها على محمد ﷺ خاتم أنبيائه ورسله ، ومن أجل هذا كان الجهاد ماضياً إلى يوم القيامة ، وهذا الذي أقوله لا يتعارض أصلاً مع حرية المعتقد التي أعلنها الإسلام مع جميع أهل الكتاب ، لأن المقصود أن يكون الخضوع العام للإسلام ، ثم يكون المرء بعد ذلك حراً في الدين الذي يعتقده ، وليس دفع الجزية إلا مظهراً من مظاهر هذا الخضوع العام .

ثم قد يحدث أن يتجرأ بعض أهل الكفر على بلاد المسلمين ، فيغيرون على ثغر من ثغور بلاد الإسلام ، فيصبح قتالهم فرضاً على المسلمين من أجل ردّ اعتدائهم وكسر شوكتهم ، وحماية سكان الدولة الإسلامية ، سواء كانوا مسلمين أو كفاراً أهل ذمة ، فالدفاع عن هؤلاء واجب شرعي ، لا ينبغي التخلف عنه أو التقصير فيه ، وإذا تقرّر هذا ، فإنا نستطيع أن نفهم جزءاً من حكمة الله في تأخر مشروعية الجهاد إلى ما بعد الهجرة ، فقد كان المسلمون في مكة قلة ، ضعفاء ، لا طاقة لهم بقريش ، فأمرهم الله بالصبر حتى يكثر سوادهم وتعدادهم ، ثم إن المسلمين أيضاً في مكة لم يكونوا يملكون إلا عقيدتهم التي يحملونها في قلوبهم ، وليس لهم على الأرض شيء يمكن أن يدافعوا عنه ، فليس هناك دار للإسلام تحتاج إلى الدفاع عنها ، وليس لهم نظام أو دولة يمكن أن يدافعوا عنها ، لم يكن معهم إلا عقيدتهم التي في قلوبهم ، وهي في منأى من أن تنالها قريش أو تصل إليها .

فلما انتقلوا إلى المدينة المنورة ، صار لهم دار يعبدون الله فيها بحرية ، ويطبقون فيها شريعة الله ، ولهم دولة تحكمهم بهذه الشريعة الجديدة ، ولهم إمام منهم يسوسهم ويقودهم ولهم مع غيرهم عهود ومواثيق يلزمونهم باحترامها ، فكان أن شرع الجهاد لحماية هذه المكتسبات التي تحققت بالإسلام .

وهذا التدرج في التشريع الرباني في فرضية الجهاد يظل قائماً إلى يوم القيامة ، فإن المسلمين تنتابهم - كما هو الحال اليوم - فترات من الضعف يتعرضون فيها للاستضعاف من طرف الأمم الأخرى ، فيشرع لهم الانكفاء على أنفسهم والاقتصار على ردّ العدوان عن أنفسهم أو عمن يستطيعون ، أو الصبر وكف الأيدي إن لم يكن بأيديهم مايمكن به ردّ الاعتداء ، ولكن هذه الحالة لا يمكن بحال من الأحوال أن تعود بالبطلان على ما قرره الله من عالمية هذا الدين ، وأنه يجب أن يهيمن على جميع الأرض ، ومن مظاهر هذه الهيمنة والسيادة أن يدخل هؤلاء في الإسلام ، فإن لم يقتنعوا بذلك أمروا أن يدفعوا الجزية عنواناً على خضوعهم للإسلام وحكمه .

وبناءً على هذا ، فإن ما ذهب إليه بعض الباحثين المعاصرين من قصر مشروعية الجهاد على رد العدوان هو نوع من التأثر بضغط الواقع ، أو محاولة لتبرير هذا الواقع ، أو السعي لإيجاد مخرج لبعض إشكاليات الفكر الإسلامي المعاصر ، وهذا كله لا يغير من الحقيقة شيئاً .

ولكن يهمنا أن نشير - وبوضوح - إلى أن التزامنا برأي جمهور الأمة لا يعني أبداً أن نسارع إلى تنزيل النصوص الشرعية على واقعنا دون فهم ولا وعي ولا ضوابط ، بل إن في فقهنا الإسلامي أيضاً أن المسلمين إذا كانوا من الضعف بحيث لا يستطيعون إعلان الجهاد ، فإن المشروع في حقهم عندئذ هو الاقتصار على ما كان عليه المسلمون أيام العهد المكي من الدعوة إلى الله عزّ وجل ، والصبر على الأذى ، وتحقيق سنن الله في الإعداد والتغيير ، انتظاراً لاستعلاء الحق وأهله .

وهذا كله يعني أن للجهاد شروطه ومتطلباته ومقتضياته وأوقاته ، فما لم يتحقق ذلك ، فلا يشرع الجهاد ، ولكن عجزنا عن الجهاد لا يدفعنا إلى تأويل النصوص تأويلاً باطلاً ، يعطي للكيانات الجاهلية شرعية البقاء .

إن حوادث التاريخ تؤكد بإصرار أن الأمة الإسلامية كلما التزمت خط الجهاد عاشت وسادت وعزّت ، وكلما تركت دينها وأعرضت عن الجهاد سامها أعداؤها الخسف والذلّ ، فتكوّمت في زاوية مظلمة من زاويا التاريخ .

واليوم ، تتكرّر الحقائق نفسها ، إن دوائر الغرب لا تجهل الإسلام ، بل هي تعرفه حق المعرفة ، تعرف قيمه العظيمة وأخلاقه السامية ، بدليل أنهم إذا احتاجوا أن يذكروا الإسلام ذكروا أنه دين السلام والمحبة والتسامح ، فيجردونه عن أوصاف القوة والعزة ، ويجعلونه ديناً سالماً متسامحاً ، وهو شكل من أشكال التلبيس على المسلمين .

إن الذي يهم هؤلاء هي مصالحهم ومنافعهم ، التي تقوم على السلب والنهب والمتاجرة في الأعراض والسيطرة على ثروات الآخرين ، كل هذا هو الذي يمنعهم من التسليم وتصديقه ، ثم تمتد هذه الحرب وهذا الأذى إلى الدعاة الصادقين الثابتين ، فيوصمون بأوصاف شتى مثل الإرهاب بغية تنفير الناس عنهم ومن ثمّ عن الإسلام ، تماماً

على المسلمين أن يصرفوا جهودهم لبناء النفس المؤمنة بدلاً من إضاعة الوقت في دعوى التعايش السلمي !

كما كانت قريش تفعل .. اتهام صاحب الرسالة والداعية والمجاهد بالإرهاب والشدة والغلوّ ، وصولاً إلى سدّ آذان الناس وقلوبهم عن سماع هذا النور وفهم هذا الدين ، بل وتأليبهم عليه وزرع الحقد في قلوبهم عليه .

إن هذه الآيات تدل بصورة واضحة أن دعوى التعايش السلمي مع أعداء الله وهم كبير يعيشه المسلمون ، وإن الوقائع والحوادث والتصريحات تؤكد ذلك ،وتبيّن في المقابل أن أمم الكفر لن ترضى عن المسلمين أبداً ، ولن تقبل منهم شيئاً غير التخلي عن دينهم والانسلاخ عنه أو عن أجزائه المهمة التي تشكل خطراً على مصالح الكفر في هذا العالم .

الدعائم المطلوب تحقيقها في ضوء الآيات السابقة :

إذا وضحت هذه المعاني القرآنية ، فالواجب على المسلمين - بدلاً من أن يضيّعوا أوقاتهم في محاولات يائسة لإقناع الغرب بجديتهم في طلب التعايش السلمي - أن يصرفوا جهودهم وأوقاتهم لبناء النفس المؤمنة الموقنة بالله ونصره وتمكينه للمؤمنين الصادقين .

إن على المسلمين حكاماً ومحكومين في ضوء الآيات السابقة أن يشغلوا أنفسهم بتحقيق هذه الدعائم الثلاث :

الدعامة الأولى : الاعتصام بحبل الله المتين :

وهذا يقتضي رجوعاً صادقاً إلى الله ، والنزول عند حكمه والتحاكم إلى شرعه ، والرضا بأمره ونهيه ، فإن ذلك هو علاقة الإيمان واليقين . قال

تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ﴾ (٥).

لابد من تجديد الإيمان في النفوس ، الإيمان الذي يجعل المؤمنين في مستوى نصر الله وتمكينه ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ... ﴾الآية(٦) .

إن كثيراً من الشعارات التي ترفع اليوم لم تعد تنطلي على أحد ولا تجد لها رواجاً في أسواق المسلمين .

لقد عاشت هذه الأمة في كنف هذا الدين ، فعزّت وسادت ، مرهوبة الجانب ، تسهر على تحقيق العدالة وإنصاف المظلومين ، ونشر الخير والفضيلة بين الشعوب ، وقدّر لكثير من الشعوب أن تنعم بالحرية والعدالة والحق في ظلال شريعة الله الخالدة .

دعاوى حركة التحرر من الاستعمار العثماني كانت تحقيقاً عملياً لسياسة الاختراق وتكوين بؤر التوتر في العالم الإسلامي !

فليس أمام المسلمين اليوم ليستعيدوا هذه المنزلة ويتبوأوا هذه المكانة إلا أن يعودوا إلى دينهم فيعتصموا به ويعمقوا في نفوسهم الإيمان والاعتزاز به .

إن أعداء الله قد أدركوا أن أعظم قوة في هذه الأمة اعتصامها بدينها واحتكامها إلى هذا الكتاب الذي كفل لها - إن اتبعته - عزّ الدنيا والآخرة ، لذلك وجهوا سهامهم إلى هذا المصدر العظيم يريدون تشويهه في قلوبها وتغييبه من حياتها .

يقول أحدهم : « يجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم ، ونقلع اللسان العربي من ألسنتهم ، حتى ننتصر عليهم »(٧).

ويقول آخر : « مادام هذا القرآن موجوداً فلن تستطيع أوربا السيطرة على الشرق ، ولا أن تكون هي نفسها في أمان »(٨)

وأقوال كثيرة أخرى ، تفيض بالحقد على الإسلام والكيد له ، من خلال جهود المستشرقين في ضرب القرآن والسنة وتشويه التاريخ الإسلامي ورجاله العظام من أيام الصحابة الكرام ، وعلى امتداد العصور الإسلامية المتعاقبة .

الدعامة الثانية : تأكيد معاني الأخوة بين المؤمنين :

فلن يبلغ المسلمون عزاً ومجداً ، ولا يستحقون نصر الله وتأييده ، ما لم تتوحد صفوفهم ، وتتآلف قلوبهم ، ويجتمعوا صفاً واحداً كالبنيان المرصوص .

وإن من مظاهر هذه الأخوة بين المؤمنين النصرة والتأييد بينهم ، فالمسلم أخو المسلم ، لا يسلمه ولا يخذله ، بل يدافع عنه ، ويبذل دمه ودينه ، فإن هذا من لوازم الولاء والبراء ، الولاء للمؤمنين والوقوف معهم ونصرتهم ، والبراء من الكفار المحاربين للمؤمنين .

إن الأخوة بين المؤمنين هي العمود الفقري لأي عزة وقوة إسلامية ، ولذلك اتجه كيد الكفر وأهله إلى زعزعة رباط الأخوة بين المسلمين ، ونشر روح العداء والفرقة وتمزيق أوصال الأمة الإسلامية ، حتى يسهل اقتناصها والاستفراد بكل جزء منها على حدة .

وقد صرّح كثير من هؤلاء الحاقدين من أعداء الإسلام بأن الضمان لبقاء المسلمين ضعفاء - وبالتالي السيطرة عليهم - هو العمل على تمزيق صفوفهم وتشتيت جهودهم وتأليب بعضهم على بعض .

يقول أحدهم : « تجب محاربة الإسلام للحيلولة دون وحدة العرب ، التي تؤدي إلى قوتهم ، لأن قوة العرب تتصاحب دائماً مع قوة الإسلام وعزّه

٥ - النساء : ٦٥ .
٦ - النور : ٥٥ .
٧ - (أفيقوا أيها المسلمون) أحمد الشريف ، ٣٥ - ٣٦ نقلاً عن مجلة المنار بتاريخ ٩ نوفمبر تشرين الثاني ، ١٩٦٢م .
٨ - قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام) جلال العالم ، ص ٣٦ .
٩ - (قوى الشر المتحالفة : الاستشراق والتبشير والاستعمار) محمد محمد الدهان ، ص ١ .

وانتشاره » [٩] .

ويقول آخر : « إذا اتحد المسلمون في امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة العالم وخطراً .. أما إذا بقوا متفرقين ، فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير ... » [١٠] .

إنهم يعرفون أن سبب وحدتنا هو الإسلام ، وأننا بدون الإسلام لم نكن ولن نكون شيئاً . إن الإسلام هو الذي أخرج العرب وغيرهم من ظلمات الجهل والجهالة ، وصنع لهم ومنهم حضارة عظيمة ، سادت قروناً من الزمن ، والمطلوب الآن هو إضعاف المسلمين بكل الوسائل والأدوات لمنع قيام حضارة إسلامية جديدة ، تقوم على العدل والحق والخير والفضيلة .

يقول أحد المستشرقين : « إن الغرض من الجهود المبذولة لحمل المسلمين على الحضارة الغربية هو تفتيت الحضارة الإسلامية التي تقوم عليها وحدة المسلمين ، وتغيير خصائصها تغييراً جذرياً عن طريق النشاط التعليمي والإعلامي والثقافي ، الذي من شأنه أن يترك في المسلمين من غير وعي منهم ، أثراً يجعلهم يبدون في مظهرهم العام لا دينيين » [١١] .

ويقول أحدهم أيضاً : « إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب الإسلامية ، وتساعد على التخلص من السيطرة الأوروبية ، والتبشير عامل مهم في كسر شوكة هذه الحركة ، من أجل ذلك يجب أن نحوّل بالتبشير اتجاه المسلمين عن الوحدة الإسلامية » [١٢] .

إنها سياسة الاختراق وتكوين الجيوب وبؤر التوتر داخل العالم الإسلامي ، للحيلولة دون انتظامه وانسجامه واجتماعه وامتناعه ، وأمثلة ذلك حاضرة في جنوب السودان وفي أندونيسيا ، ومحاولات حثيثة تجري في كثير من بلاد المسلمين .

وانظر إلى هذا التقرير الذي يجسّد مأساة هذه الأمة ، وما آل إليه حالها ، لقد كتب الكولونيل (لورنس) تقريراً إلى المخابرات البريطانية عام ١٩١٦م ، بيّن الأهداف الخفية التي كان العرب يومها غافلين عنها ، منساقين وراء دعوى حركة التحرر من الاستعمار العثماني كما يزعمون ، غافلين عما يراد بهم ويدبّر لهم .

لقد جاء في هذا التقرير : « وإذا عرفنا كيف نعامل العرب فسيبقون في دوامة الفوضى السياسية ، داخل دويلات صغيرة حاقدة متنافرة غير قابلة للتماسك » [١٣] .

عدم تربية الجيل القادم على روح الجهاد والاستشهاد يورثه تبلداً في الطبع وانحرافاً عن الدين

ويقول أحدهم : « إن العالم الإسلامي عملاق مقيد ، لم يكتشف نفسه حتى الآن اكتشافاً تاماً ، وهو حائر ، قلق ، ضائق بتخلفه وانحطاطه ، وإن كان يعاني من الكسل والفوضى ، غير أنه راغب في مستقبل أحسن وحرية أوفر .

وعلينا أن نبذل كل جهودنا حتى لا ينهض ويحقق أمانيه ! ذلك لأن فشلنا في تعويق نهضته يعرّضنا لأخطار جسيمة ، ويجعل مستقبلنا في مهب الريح .

إن صحو العالم العربي ، وما يتبع من قوى إسلامية كبيرة نذير بكارثة للغرب ، ومهابة لوظيفته الحقيقية في قيادة العالم » [١٤] .

هذا هو الرعب الذي يفزعهم ويخيفهم من الإسلام وأهله ، إنه الخوف على مصالحهم ، والخوف من أن تضيع منهم قيادة العالم وتستلمها هذه الأيدي المتوضئة ، والوجوه الخاشعة ، التي تنشر في العالم قيم الخير والفضيلة ، وتملؤه

١٠- (قادة الغرب يقولون ، ص٥٤ قوى الشر المتحالفة ، ص٢١)

١١ - (قوى الشر المتحالفة ، ص١٦)

١٢ - (قادة الغرب يقولون ، ص٥٤).

١٣ - (أفيقوا أيها المسلمون ، ص٤٧) نقلاً عن مقال نشرته مجلة المجتمع ، عدد ٢٣٦ بتاريخ ٢٩ / ١ / ١٣٩٥ للكاتب نبيه عبد ربه .

١٤ - (الغزو الثقافي يمتد في فراغنا ، محمد الغزالي ، ص٤٢) .

بالسلام والأمن والعدل .

الدعامة الثالثة : إعداد أبناء الإسلام للمعارك الفاصلة مع الكفر ، بكل أشكاله وألوانه .

يجب أن يتربى الجيل القادم على روح الجهاد والاستشهاد ، والاستعداد للدفاع عن دينه وعرضه وأرضه ، لا يجب أن يتربى أبناؤنا على دعاوى التعايش السلمي الوهمي ، فيألفون رؤية الكفار ، يسرحون ويمروحون في بلاد المسلمين ، رافعي الرؤوس . إن من شأن هذا الإلف ، أن يبلّد الطبع ويورث الخور والضعف والانحراف عن هذا الدين ، والتباس الحق بالباطل ، وحصول الهيبة والخوف من الكفار ، خاصة في هذا الزمن الذي قدّر لهم أن يتفوقوا على المسلمين في جوانب التقدم العلمي .

لقد بذلت قوى الكفر جهوداً جبارة ، وجيّشت جيوشاً جرارة ، من أجل فصل أجيال المسلمين عن دينها ، ونجحت في ذلك في القرن الماضي .

يقول القس صمويل زويمر سنة ١٩٣٥م وهو يثني على جهود المبشرين لإخراج المسلمين من دينهم : « إنكم أعددتم نشأ لا يعرف الصلة بالله ، ولا يريد أن يعرفها ، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه في المسيحية ، وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقاً لما أراده له الاستعمار ، لا يهتم بالعظائم ، ويحب الراحة والكسل ، فإذا تعلم فللشهوات ، وإذا جمع فللشهوات ، وإن تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات ، يجود بكل شيء ، إن مهمتكم تتم على أكمل الوجوه » (١٥) .

ولكن هذا النجاح سرعان ما تبخّر تحت شمس الإسلام المشرقة ، حيث شهد أواخر القرن الماضي رجوع أجيال الشباب إلى دينهم ، وطغت مظاهر الالتزام بهذا في المدارس والجامعات ومراكز العلم ، وشهد العالم الإسلامي صحوة إسلامية مباركة ، أقضّت مضاجع الكفر ، فراحوا يخططون ويدبّرون ويفكّرون في أنجع الوسائل لوقف هذا المدّ الزاحف ، وهذه مراكز البحوث والدراسات تملأ مدن الغرب ،

ما فعلته اليهودية والنصرانية في البوسنة والهرسك وفلسطين شاهد دائم على مدى الحقد الدفين على الإسلام !

ولا هم لها إلا دراسة ظاهرة الصحوة الإسلامية ، ورجوع الناس إلى الإسلام ، الأمر الذي بات يشكل خطراً كبيراً وعظيماً على مصالحهم .

وقد تنوعت أساليب الكفر في محاربة الإسلام ، فبعضهم يرى أن تشن عليه الحرب الضروس ، وبعضهم يرى أن الأجدى هو تعلّم الإسلام ، ليسهل عليه حربه والقضاء عليه ، وهم يعلنون صراحة أن الذي يخيفهم من العرب أو يدفعهم إلى الاهتمام بهم ليس وجود البترول أو المصالح المادية الأخرى ، ولكنه الإسلام الذي يقض مضاجعهم ، ويهدّد كفرهم وطغيانهم (١٦) .

ثم إن هؤلاء الكفار أنفسهم يقرّون بهذه الحقيقة ويصرحون بها ، فمفكّروهم - وهم أصدق أحياناً من ساستهم - يتذكرون أحداث التاريخ الإسلامي الطويل وصراعه اللاهب مع أمم الكفر من اليهود والنصارى ، ثم يقرّر أحدهم أن الصراع بين الإسلام والمسيحية ليس صراعاً بين دول أو شعوب ، بل هو صراع بين الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية (١٧) .

بل حتى الساسة منهم - على ما عرف في السياسة من الالتواءات والنفاق - تندّ عنهم بين الحين والآخر من التصريحات ما يدلّ على المخزون الفكري الذي يملأ رؤوسهم ويسيطر على تصرفاتهم ويحدّد أهدافهم ومقاصدهم .

إن أعداءنا لم ينسوا الصراع الدامي بينهم وبين الإسلام ، فهم لا ينفكون يردّدون بين الحين والآخر صيحات الثأر والانتقام ، لكنها أحياناً تبدو همساً وتخطيطاً ، وأحياناً أخرى صراخاً وضجيجاً حسب الظروف والمقتضيات ، وكلما وجدوا من المسلمين

١٥ - (جذور البلاء ، عبد الله التل ، ص٢٧٥ وما بعدها) .
١٦ - (انظر في تأكيد هذه الحقائق : (الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري) ، محمود حمدي زقزوق ، ٣٤ ، (قوى الشر المتحالفة ، ص١٥) .
١٧ - انظر : (قوى الشر المتحالفة ، ص١٥) .

ضعفاً ، وأنسوا منهم نوماً ، جددوا وباحوا بما يعتلج في صدورهم من حقد على الإسلام والمسلمين ، وكلما تمكنوا من رقاب المسلمين خاضت خيولهم وسيوفهم في دماء المسلمين ، وارتكبوا المذابح الرهيبة في حق الأطفال والشيوخ والنساء والزهاد والعباد ، واستباحوا دورهم وأموالهم . إن ما فعلته الصليبية الحاقدة في القرون الماضية من جرائم بشعة في حق الإسلام والمسلمين في أرض فلسطين وبلاد الأندلس وقصص محاكم التفتيش ، إن هذا الذي فعلوه لا يمكن أن يمحى من التاريخ أبداً ، وقد شهد به حتى بعض المنصفين منهم .

ثم ما فعله الاستعمار في كثير من بلاد المسلمين لم يختلف عن الصليبية في شيء ، ثم ما فعلته اليهودية والنصرانية في هذا العصر في البوسنة والهرسك وأفريقيا وفلسطين وأماكن أخرى كثيرة من بلاد المسلمين تكشف لكل ذي عينين وبما لا يدع مجالاً للشك أن الحقد الكافر على الإسلام كان ومازال وسيظل قائماً تقوده دوائر المصالح في الغرب الصليبي ، وهي لم تكف عن حرب الإسلام عندما كان المسلمون أقوياء ، فهل تترك ذلك عندما أصبح أبناؤه مشتتين مشرذمين متفرقين شيعاً وأحزاباً ، وكثير منهم انقطعت صلته بهذا الدين إلا بقايا قشور وشعارات لا تسمن ولا تغني من جوع .

مغالطة إقامة السلام الدائم ، والجواب عليها :

إن كثيراً من المسلمين حكاماً وعلماء ودعاة يذهبون في حسن ظنهم بهؤلاء بعيداً ، حين يظنون أنه بالإمكان إقامة سلام دائم معهم . إن هذه مغالطة كبيرة من جهتين :

الأولى : الجهة الشرعية : وقد فصلنا الكلام فيها .

الثانية : الجهة الواقعية : فإن هؤلاء يرعون مصالحهم عندنا وليس لديهم استعداد لإقامة تعايش سلمي معنا ، وحتى شعارات الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان ، هي شعارات يريدون تطبيقها في إطار السياسة التي تحفظ لهم مصالحهم أو عندما يتعلق الأمر بحريتهم هم وحقوق الإنسان عندهم ، ثم إنهم لا يمانعون أن يوفروا لبعضنا حقه وحريته على طريقتهم ومنهجهم طبعاً ، ولكنهم يريدون أن يتم ذلك من خلال سيطرتهم وأنظمتهم وقوانينهم ، فهم لا يرون بأساً أن تصلي وتصوم وتحج ، بل وحتى إمكانية الدعوة إلى الإسلام ، ولكنهم حريصون على أن يبقى الإسلام الذي لا يضر مصالحهم ، فلا مانع عندهم أن ينتشر الإسلام المروّض والمدجّن ، والمسلمون المروّضون هم الذين حذفوا من قواميسهم معنى الجهاد الشرعي واستعاضوا عنه بمعارك ومفاهيم جديدة .

ثم حتى لو جاز لهؤلاء الذين يعيشون في دار الكفر أن يمارسوا ويدعوا إلى الإسلام بهذا الشكل ، فهل هذا يبرّر لأمة الإسلام الكبيرة أن تلغي من قواميسها أن شريعة الله هي خاتمة الشرائع ، وأن الله لا يقبل من أحد إلا دين الإسلام ، وأن الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة ، وأن الله يأمر المسلمين أن يقاتلوا أهل الشرك والكفر حتى يكون الدين كله لله ، وهل الدين اليوم كله لله حتى يعفي المسلمون أنفسهم من هذا الواجب العظيم .

إن محاولة الرجوع بالأمة إلى الإسلام تدريجياً بعد هذا الغياب الطويل والشرود البعيد ، لا يعني أبداً إغفال مبادئ الإسلام وقيمه العليا ومقاصده الشرعية .

لقد اجتمع على المسلمين اليوم أمم الأرض كلها من يهود ونصارى وعبدة الأبقار والأوثان ، هؤلاء الحاقدون يتكالبون على أمة الإسلام ويعملون على تمزيقها وتفريقها حتى يسهل عليهم ابتلاعها جزءاً جزءاً ، ولن يكون حال من يقّعد للتعايش السلمي وينظّر لعلاقات حسن الجوار إلا كما قال القائل « أكلت يوم أكل الثور الأبيض » .

إن في حقائق تاريخ الصراع بين المسلمين وتجمعات الكفر والشرك ما يقنع هؤلاء المخدوعين بدعوى التعايش السلمي أنهم يحرثون في البحر ويطاردون الهواء .

والله من وراء القصد ، وهو يهدي السبيل .